١١

ميت حي يبحث عن قبره ...

طاهر زين الدين إسماعيل

ولأنه ينحدر من ظهر حلاق ابن حلاق، فقد ظن الصغار أنه ولهذا السبب وحده حباه الله بشعر جميل..أما وجهه الأجمل، فقد ظنوا أيضًا أنه كان من الملائم أن تكتمل روعة رأسه الجذاب بكلتا هاتين النعمتين معًا: شعره ووجهه..

وقد جبل طاهر زين الدين على الاعتناء بنفسه وشعره الذى يضوى بلمعان الفازلين، وعطره الفياح، وملابسه: جلابيب كانت، أو قمصانًا وبناطيل، تبدو دومًا للرائين كمن أتى بها توًّا من عند الكواء..

أما دماثته ورقته وأدبه الجم، فكلها صفات دعت كل من حوله أن يأخذهم مزيد من الارتياح الذى نالوه قبلًا من حسن مرآه..

وكلما كبر طاهر كانت تكبر معه أمنية خفية لا يُسر بها لأحد وهو أن يصبح والده زين الدين أقل قسوة مما هو فيه، وأخف روحًا، وأرق قلبًا، ولذا فقد اتفق مع نفسه أن يتفادى عواصف والده بالانحناء الدائم أمامه.. ولا يحاول أن يأتى بخطأ تافه، فقد يكون ذلك عند والده جريمة كبرى.. وتعلم أن يصرف وقت فراغه فى الدكان، ثم تعلم أن يقدم خدماته لزبائنهم متطوعًا.. ومع ذلك، فالأمر لم يكن يسلم أحيانًا من كلمة توبيخ عابرة، أو لكزة مهينة سافرة من والده.. حينئذ ينطوى على نفسه، ولا يبدو متأففًا، فهذا فى حد ذاته احتجاج يلزمه تعنيف جديد، والأولى به أن يتفادى هذا التعنيف..

أما تاريخه العاطفى، فهو الجمال الآخر الذى لا يعرفه إلا كل من يقترب منه.. ولم يعد

Obeikan.com

خافيًا على أحد من هـؤلاء القريبين أن طاهـر زين الدين وعبد الحليم حافظ صارا بالنسبة لهم شخصًا واحدًا.. حتى أنه لم يعد من اللائق أن يوصف بأنه مجنون عبد الحليـم.. كيـف هـذا، وهـو بالنسبة لهم عبد الحليم نفسه..؟

وهـذا ما كانوا يرونه أمامهم وهـم صغار فى المصلى المفروشة بقش الأرز تحت شـجرة ذقن الباشا، فبعد انصراف المصلين كان طاهـر يعيد لهم أحـداث فـيلم لحـن الوفـاء سردًا وتمثيلًا، ثم يطعم الأحداث بالأغانى فى مواقعها كما جاءت بالفيلم.

وعلى عكس اهـتمامات فتيان بحصالاته التى تـزدحم دومًـا بقروشـه المكتـنـزة كانـت اهـتمامات طاهـر زين الدين تسفح مصروفه اليومى، فهـو يشـترى المجـلات وكراسـات الرسم ذات الورق المقوى، ويعكف على قص صور النجوم وأولهم عبد الحليم حافظ ثـم عمر الشريف وأحمد رمزى وصالح سليم وغيرهـم، ويثبتها بالصمغ، وظل مواظبًـا عـلى هـذا الحال حتى زادت كراساته الخاصة عن كراسات المواد الدراسية..

وفيما بعد راح يلتفت إلى قصّات شـعر هــؤلاء النجـوم حتـى راق لـه أن يقلدهـــا فى رءوس أصدقائه، ولأنه تعلم بالممارسة التدريجية كيف يمسك بـالمقص والماكينـة وجـرب ذلك مرارًا فى رءوس الفلاحين ـ دون تعمد فى الإبداع ـ فإن الطلبة لم يخشوا على رءوسهم أن يفسدهـا طاهـر الذى كان فى نظرهـم يتعلم الحجامة فى رءوس اليتامى..

وكان أول من تعلم فيهم القصّة الإنجليزى هـو فتيان فتيـان الـذى سـعد بنيـل قَصَّـة مجانية، ولأن شعره من النوع المفلفل فقد أبدع طاهـر فى عمل تدريجة تبدأ بدرجـة الزيـرو من عند الأذنين ثم تعلو عند قمة الرأس.. ولأن تلامذة الأرياف لاحظـوا انتشـار موضـة هـذه القَصَّة بين طلبة المدينة فقد سارعوا إلى طاهر ليصنعها لهم.

لم يكن طاهـر يعلم أن هـذا التقدم المبكر منه فى صنعة أجداده يثلج صدر جده لأبيـه كلـما مر عابرًا على الدكان ووجده يمسك بزمام العمل رغم صغره مالئًا مكان أبيه فى غير وجوده.. فأبوه دائم الانتقـال بـين بيـوت القريـة لضرب الحقـن للمـرضى.. أو التغيـير عـلى جـروح العمليات.. أو إجراء طهور لطفل صغير.. فزين الدين إسماعيل ليس حلاقًـا فحسـب.. بـل هـو الممرض دائمًا وواصف الدواء أحيانًا، وحلاق الصحة على طول الخط..

ولم يكن طاهـر يعلم ما يعتمل فى صدر جده إسماعيل من قلق على مملكتـه التـى صـارت مرهـونة بوجود ولده زين الدين.. والذى لا يملك سوى وريث واحد هــو طاهــر.. فهـذا الدكان الذى لا ينافسه دكان آخر فى البلد قد تذروه الرياح إذا حدث مكـروه لـزين الـدين.. وهـو إذا كان قد أرسى قاعدة تمنع ـ بقوة السطوة الناعمة ـ أى صبى من الذين مروا على دكانه وعملوا به وتحولوا إلى أسطوات أن ينافسوا دكانه إذا ما غادروه ـ لأى سبب ـ بفـتح دكـاكين لهم. فإنه صار لا يضمن أن ينجح أحدهـمـا خاصة الأسطى كرم هـذا الصنايعى الخالى الملء بالوقاحة والتنمر ويفلت من حصاره المنيع وينافس العائلة بفتح دكان لنفسه.

وكان الجد إسماعيل يراقب السير الهادئ لطاهـر فى طريق الدراسة، وقد فكر للحظات أن يختصر له الطريق ويلحقه بالتعليم المتوسط، ولكنـه أمـام انخـراط أحـد أبنـاء عبـاس النحّال فى الثانوى العام.وكذلك الولد ابن الأسطى إبراهيم عبد الواحد استنكف أن يقل عنهما حفيده فى مستوى الدراسة.

ورغم هـذا وعندما غادر الأسطى كرم الدكان على غير انتظار بعد مشاجرة زاعقة مـع معلمه الأسطى زين الدين جلس الجد إسماعيل واضعًا يده عـلى خـده لبضـعة أيـام أمـام الدكان وهـو يفكر فى أمر ما..

جرب أن يسترجع قدرته فى الإمساك بالماكينة والمقص، فلم تسـاعده عظامـه الواهـنة أن يقف طويلًا، ولم يساعده نظره الكليل أن يحسن عمله، ولم تسـاعده رعشـه أصـابعه أن يقنع الزبون أنه كفـء لما يقوم به..

عاد طاهـر من المدرسة ذات يوم ووجد العجوز فى مأزق فركن كتبـه عـلى رف قريـب وتناول «العدة» من شيخه المهموم وواصل عمله بديلًا عنه وهـو يرمق امتنانه بعين خفية.

وفى هـذا اليوم انجرف طاهـر بحكم الموقف إلى الانتقال من زبون إلى زبون حتى حل المساء دون أن يتناول غداءه.. ولكنه لم يلتفت إلى تلك الطلة السريعة من والده عليه وعلى جده ثم انصرافه السريع دون أن يعود إلى الصالون إلى أن حل المساء.

أغلق طاهـر الدكان.. وحمل كتبه بيساره.. وسـاند جـده بيمينـه.. وسـارا معًـا حتـى المنزل.. وفى الطريق ناداه جده..

ـ «طاهـر..»

ـ «نعم يا جدى..»

ـ «أعرف أنك جـائع.. ومرهــق.. وسـوف تذهــب إلى البيـت الآن لتـنعم بالطعـام والراحة..»

ـ «بإذن الله..»

ـ «لكن يا طاهـر ماذا لو لم تجد فى المنزل طعامًا ولا خيرًا ولا راحة..؟»

ـ «أعوذ بالله.. نحن نعيش فى خيرك يا جدى..»

ـ «خير جدك.. وأبوك فى خطر يا طاهـر..»

ـ «كيف ذلك يا جدى..؟»

ـ «سمعت أن الولد كرم الخائن يبحث عن دكان لينافسنا ويسلبنا الزبائن ويسطو عـلى مملكة جدك وأبيك ..أبوك يا طاهـر تعبان ولا يفرغ ويحاجة إليك معه..»

ـ «إلىَّ أنا؟»

ـ «أجل يا ولدى.. أنت بنفسك رأيت جدك يحاول مساعدته ولولا حضورك فأين كان سيذهـب كل هـؤلاء الزبائن..؟ الولد كرم فى انتظار هـذه الورطة ليسـطو علينـا.. وقـد قصد عمل هذه المشاجرة مع والدك لعلمه بمدى أهـميته للدكان..»

ـ «فلنأت بأسطى جديد..»

ـ «والدك عصبى ولا يستمر معه أى أسطى لا جديد ولا قديم..لقد تعبت معه كثـيرًا، رجوته أن يقلل من اندفاعه وفظاظته..لن نجد من يعمل عندنا بسهولة.»

ـ «والحل؟..»

ـ «خذ إجازة..»

ـ «المدارس لا تمنح الطلبة سوى الإجازات الرسمية.»

ـ «أعلم ذلك.. ما أقصده أن تتولى الدكان حتى نجد حلًا..»

ـ «ما قلته الآن عن والدى هـو الذى يخيفنى منه..»

ـ «تحمل يا طاهـر.. باب رزقنا الوحيـد فى خطـر.. أختـاك عـلى وجـه زواج.. وأمـك مريضة.. وأنا أداوم على علاج السكر وضغط الدم.. فأين المفر؟»

ـ «يمكننى استغلال الوقت المتاح لى بعد الدراسة اليومية.»

ـ «جئ على نفسك، وركز تواجدك طوال اليوم فى العمل.»

وجاء طاهـر على نفسه كما أوصاه جده الذى يحبه.. ولا حظ ارتياح والـده لما أحدثـه وجوده معه من تماسك فى قوام الدكان الذى كاد أن يتهاوى.. ولكنه سرعان ما تخلى عـن ارتياحه عندما أهـمل طاهـر الدكان ذات صبـاح وذهـب إلى المدرسـة لأهميـة حصـص هـذا اليوم فى عامه الأول بالثانوى العام..

وجده فى انتظاره على باب الدكان وهـو يهبط من الأتوبيس، أشار إليه براحـة كفـه أن يقبل إليه.. وما أن أقبل على أبيه فى أمان واقترب منه فى طاعة حتى هـوى بكفه على وجهه بقسوة ثم قبض على كتبه وألقاهـا أرضًا، ودفعه إلى داخل الدكان ليكمل تأديبـه بطريقتـه ولم ينقذه سوى وجود بعض الزبائن الذين حالوا بينهما. وكان معنـى هـذا العقـاب مـن والده أن يفهم طاهـر أنه لا مدرسة بعـد اليـوم.. وأنـه لا حـديث فى هـذا الموضـوع إلا بإذنه.. وحتى يرسخ المعلم زين الدين هـذا المفهوم لدى ولده كـان يتعمـد أن يوبخـه إذا تأخر فى فتح الدكان عن موعد الساعة الثامنة صباحًا. فكم من زبون يحرص عـلى تهـذيب ذقنه قبل توجهه إلى عمله، وكم تعود أصحاب المصالح أن يضربوا مواعيدهـم باللقـاء فى دكان زين الدين قبل أن ينطلقوا إلى أعمالهم.. وكم يقصده فى الصباح من يطلبون حَقْنهم أو شراء علب الحبوب التى لا تخلو من سيالته دائمة الانتفاخ والتكدس.

ولم يكن أمام طاهـر سوى انتظار إجازة يوم الإثنين بفارغ الصبر حتـى يلحـق بـزملاء جلسته الهانئه، جلسة المصلى على ترعة وجه البلد ليسفح أمامهم تفاصيل مصيبتة الكبرى، مصيبة يومه الطويل الملئ بالقهر والمهانة على يد والده .. ولما كانـت دموعـه فى كـل مـرة سهلة الانهار، فقد كان فتيان فتيان يتأمل هـذه الدموع الطيّعة باستغراب ودهشة، ويتذكر تاريخ مراقبته لها منذ الصغر وفى جنازات زكريا مسـعود، وأحمـد خلـف، وعـلى رشـاد.. هـؤلاء الذين ماتوا فى عز الطفولة.. ولم يلبث أن ازداد عجب فتيان عندما سـألهم طاهـر

زين الدين فجأة.

ـ «هـل تتذكرون زكريا مسعود وأحمد خلف وعلى رشاد؟.. الله يرحمهم..»

سأله فريد هـنيدى: «وما الذى أتى بهم على بالك؟..»

فقال طاهـر زين الـدين: «لا أدرى لماذا تطـاردنى ذكراهـم وصورهـم وذكريـاتهم باستمرار..لماذا يزورونني فى المنام؟ لماذا أحس دائمًا أنهم ارتاحوا مبكرًا من هـذه الدنيا..»

فلاحقه فريد بسخرية:

«إياك أن يكون أجلك قد اقترب وسوف تلحق بهم يا طاهـر..»

صمت طاهـر طويلًا، ثم رفع رأسه نحوهـم..ودقق النظر فى فريد هـنيدى:

ـ «ولماذا تقولها هـكذا بسخرية.؟ أنا الآن أشهد موتى وأنا على قيد الحياة.. أنا مت فعلًا يا فريد ولحقت بزكريا وخلف وعلى رشاد.. فاقرءوا علىّ الفاتحة..»

ولما سأله رأفت باحتجاج:

ـ «ما هـذا الذى تقوله يا مجنون؟»

فرد وهـو سارح:

ـ «لست بمجنون، أنا الميت الحى.. أنا الميت الوحيد الذى يبحث عـن قـبره المناسب بنفسه»

ولم تمض شهور قليلة حتى اختفى طاهـر زين الدين من البلـد، ففهـم الأصـدقاء أنـه ذهـب ليبحث عن قبر مناسب بعيدًا عن قبره الذى يعيش به هنا.. فى البلد.